هجرة بوطبيلة في زمن الاختلاف الثقافي.

Boutabila's migration in a time of cultural difference

عبير عقون *abir aggoune* *

السنة الثانية دكتوراه ، المركز الجامعي مغنية – تلمسان

com.abireabire002@gmail

تاريخ الإرسال:2022/02/09 تاريخ القبول: 2022/08/16. تاريخ النشر: 2024/01/29

ملخص: لما كانت الثقافة الشعبية مدونة إيديولوجية إنسانية تفرض نفسها تعبر عن تمفصلات حياة الجماعة كانت الدراسات الثقافية التي اغتنت من معين الأدب والثقافة الشعبية فأعادت الاعتبار للخطابات المهملة والمهمشة، راح النقاد يدرسونها انطلاقا من جملة من الآليات التي أوجدها الغرب والتي تسعى إلى استنطاق النص الشعبي والكشف عن أسراره،. فنحن نسعى من خلال هذه الورقة الخوض في غمار الدراسات البينة التي عالجت الوجه الإشكالي لتدفقات المناهج والتخصصات النقدية ومنها أفضت إلى تحول الخطاب النقدي من الساحة الأدبية إلى الساحة الثقافية، ثم الولوج لنفض الغبار عن مهمة رمضانية تصارع من أجل البقاء وسط هذه التيارات المتضاربة.

الكلمات المفتاحية: الثقافة الشعبية، بوطبيلة، تكنولوجيا، المدينة، الريف .

Abstract : *hen the public culture was on ideologic and humaneness recorder inpose itself expressing the hings of the community life. The cultural studies which riched from literary and social cultural iterate consideration to the delinquent speeches. Beviwers started to study it from a set of mechanisms or procedures which where found in the westerners which attempts to coordinate the popular text and discovering its secrets. Through this paper we seek to get into the evident studies which dealt with curriculum flows and literary criticisim which lead diretly to the transformation of the ctitical speech from the literary area to the culture area and then to the struggle for taking or standing in the middle of all these currents*

Key- words : *popular culture, potabila, technology, city, countryside.*

*المؤلف المرسل

مقدمة:

الثقافة الشعبية عبارة عن منظومة مركبة ومتجانسة تشمل جميع انجازات الإنسان المادية وغير المادية بوصفه عضوا في المجتمع تظهر في الرموز والعادات والتصورات والتقاليد والقيم والأفكار والآمال والإبداعات والمبادئ أي كل ما ينتج عن شعوره، فعله،وتفكيره فالنشاط هو تفاعل مجموعة من الناس بالضرورة بشكل مستمر وتراكمي في أرض محددة تميزه تبعا لخصوصياته التاريخية والحضارية؛ وهو الأمر الذي يسلط الضوء أكثر على علاقة الإنسان بالطبيعة كون الثقافة ما يصنعه الإنسان في البيئة، يكشف عن خلجاته النفسية واهتماماته الروحية وأحلامه وتطلعاته يتناقلها عبر الأجيال يعبر بها عن انفراده وخصوصيته، ومنه التراث مرتبط بالإنسان منذ نشأته كونه يعبر عن كل ما قام به.

يجمع العالم بأكمله على أن التراث هو كل ما يستحق الحفظ من العناصر المادية وغير المادية كونه بطاقة تعريف لكل أمة من الأمم فهو حلقة وصل بين ماضيها وحاضرها، كلما طُرحت قضية التراث طرحت قضية الهوية والتجذر التاريخي، فالهوية هي مبادئ وعقيدة وتاريخ ولغة وحضارة ومهمنة بوطبيلة هي عبارة عن تراث ليلي يكتسح شهر رمضان بين أزقة المسلمين .

إلا أنه كانت هناك قطرة أفسدت صفوة المياه وهددت الهوية العربية في عقر دارها ألا وهي العولمة والتكنولوجيا التي استهدفت هذا المنبه البشري بالتهديد بالانقراض؛ وقد غدا الإنسان في تيه بين المحافظة على الهوية التراثية أو الارتماء في أحضان الحداثة التي تسهل له مكامن عيشه، فمن هو هذا الرجل وفيما تتمخض مهنته وهل هي قادرة على استيعاب تحولات الحداثة والصمود أمام العولمة؟. ومن أجل الاجابة على مجمل هذه التساؤلات ارتأينا أن نعتمد المقاربة الثقافية نهجا في التقصي والتحليل.

1. تحولات الخطاب النقدي: من الأدبي إلى الثقافي

انطلقت أغلب مناهج النقد من أرضية فكرية غربية استطاع مفكروها وفلاسفتها أن يحدثوا ضجة معرفية في عالم النظرية الأدبية والمناهج النقدية وبدأ توهج تلك الأخيرة مع المناهج السياقية:التاريخية، الاجتماعية، النفسية، التي يراعي فيها الناقد السياق الخارجي في تكوين النص؛

بمعنى كل ما تعلق بالمؤلف والظروف المحيطة به ليغدو ذلك الأخير هو صانع النص، ولكن ذلك التركيز المفرط على السياقات الخارجية للنص الأدبي افقد النص محتواه وهو ما أدى إلى تغير منحى النقد من السياق إلى النسق مع مجيء البنيوية في منتصف القرن العشرين، فقد أصبح عالم المناهج يقوم على "دراسة النص الأدبي بعد اقتلاعه من محيطه السياقي فمن النص الانطلاق و إليه الوصول".[1]

ما تزال الحركة النقدية تواصل جهودها في سبيل تطوير المناهج والنظريات الأدبية، إذ أصبح النص الأدبي يحاكم بمعزل عن مؤلفة؛ بعدما أعلن "رولان بارث" (Roland Barthes)عن موته، وتقصى معجم النص وتراكيبه البلاغية، النحوية واللغوية وكذا شفراته ورموزه التي تضيء دلالاته، بشكل منفرد بعيدا عن البيئة الاجتماعية، السياسية، الثقافية، لكن رغم مراهنة البنيوية على مقولة موت المؤلف المرفوعة والتركيز على مقولة النسق المغلق والتحليل المحايث؛ إلا أنها لم تستطع أن تتملص من سلطة السياق الخارجي المحيط بالنص الأدبي فقد "انقلب الرهان البنيوي (المبالغ) على مفهوم "البنية" ومشتقاته اللسانية؛ من أنساق محايثة ونظام مركزي منضبط، ...إلى انقلاب معرفي وصم البنيوية بالتجديد والاختزال والانغلاق والموت غير المعلن".[2]

من البنيوية إلى ما بعد البنيوية ، ومن التركيز على المؤلف إلى التركيز على القارئ الذي يفك شفرات النص الأدبي في ضوء نظرية القراءة وجمالية التلقي، انه القارئ الذي دعا بارت نفسه إلى تمجيده لتصبح الكتابة والنص دعوة موجهة إلى القارئ الذي يفك الرموز والشفرات فالكتابة في الدرجة الصفر هي كتابة إشارية فهي خلخلة تهدف إلى زعزعة الذات الفاعلة وتشتيتها، ليبقى القارئ هو الفضاء الذي ترتسم فيه الاقتباسات فميلاد القارئ رهين بموت المؤلف على حد تعبير بارث الذي شكلت كتاباته بداية لتحول نقدي أزاح السياق واستبدله بسلطة النسق.

لتكون ما بعد البنيوية ليست إلغاء للبنيوية وإنما هي استمرار لجهود كثيرة تضافرت مشكلة نقطة انعطاف في مسار البنيوية نفسها دون إحداث القطيعة، فقد أعادت البنيوية فحص نفسها من جديد، وتداركت أخطاءها في قالب جديد؛ يواكب موضة المناهج النقدية ليقدم الجديد في هذا العالم.

من نظرية القراءة التي ركزت على القارئ إلى الدراسات الثقافية والنقد الثقافي الذي يروم الاشتغال على تفجير النص وتفكيكه للوقوف والكشف عن مضمراته النسقية فالنقد الثقافي أو المناهج التفكيكية ما بعد البنيوية "تستهدف تفجير النص انطلاقا من مبدأ اللاتماسك و جعله يلعب ضد نفسه "[3] على حد تعبير "جيرار جينجومير".

تعتبر الدراسات الثقافية والنقد الثقافي ثورة على المناهج والنظريات الأدبية وتأسيسا لطرح جديد في التعامل مع النصوص والخطابات من وجهة نظر ثقافية في إطار مناهج ما بعد البنيوية متجاوزه التركيز على كل ما هو مركزي إلى الهوامش التي أدين الاشتغال عليها في مرحلة من مراحل المناهج النقدية السالفة؛ فبعدما عبر الفكر الغربي عن فكرة المركز، الماهية، الجوهر، المحتوى، آن الأوان في ظل هذه الدراسات لنسف المراكز والإعلاء من سلطة الهوامش ،عمدت إلى إضافة الدراسة الثقافية الشعبية والجماهيرية بوصفها نصوصا تستحق التحليل والتفسير؛ من اجل تقويض المركزيات والنخب المتعالية، وإعلاء صوت الهامش المقصي متبنية طروحات "نيتشة" المتمثلة في العداء لفكرة النظام وعدم الاكتراث بأعراف و قواعد المؤسسات الأكاديمية مستفيدة من تخصصات كثيرة ومتباعدة فهي "ليست شيئا واحد و إنما هي عدة أشياء، حيث تتخذ موقف المنظر الطبيعي العقلاني، والأكاديمي من القواعد القديمة الوضيعة إلى النزعات السياسية الجديدة والممارسات العقلانية وأنماط البحث، والتحقيق مثل: الماركسية وما بعد النزعة الاستعمارية والحركات النسوية وما بعد البنيوية وتنتقل من مجال إلى أخر ومن منهج إلى أخر تبعا لاهتماماتها ودوافعها ".[4]

وعليه هي ضد النظام والقواعد المحددة؛ ارتبطت بأعمال زمرة معينة من المفكرين والفلاسفة أهمهم : كارل ماركس (Karl Marx)، جاك ديريدا (Jacques Derrida) ، جاك لاكان (Jacques Lacan)، بيار بيرديو(Pierre Bourdieu)، لوي التوسير louis (althusser)، هوبي بابا(bhabha homi)، ميشال فوكو (Michel Faucault)، سيجموندفرويد(Sigmund Freud)، ادوارد سعيد(Edward Said)،وحملت العديد من الآليات والطرق القابلة للاستعمال على حسب الحاجة المنهجية، من اجل دراسة جميع الموضوعات

الثقافية المتعلقة بالمجتمعات البدائية أو المجتمعات المعاصرة؛ بمعنى دراسة الثقافة السائدة والثقافة الفرعية المتعلقة بالفئات المضطهدة اقتصاديا؛ واهتمامها بقضايا المرأة ,قضايا الذات والهوية، القضايا العرقية، قضايا الطبقة العاملة ووقفت على دراسة جل المواضيع التي تتعلق بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة، من اجل فهم الثقافة بجميع أشكالها ورصد أشكال الهيمنة . يرى "اثريزابرجر" ": أن مصطلح الدراسات الثقافية ليس مصطلح جديدا؛ حيث شرع مركز برمنغهام في صحيفة أوراق عمل في الدراسات الثقافية، والتي تناولت وسائل الإعلام، الثقافية الشعبية، الثقافات الدنيا والمسائل الإيديولوجية، الأدب وعلم العلامات، المسائل المرتبطة بالجنوسة، الحركات الاجتماعية، الحياة اليومية وموضوعات أخرى متنوعة ".[5]

إن الدراسات الثقافية بوصفها مجالا معرفيا وحقلا للممارسة؛ شملت العديد من التيارات المختلفة، إلا أنها قد أخذت موضوع وسائل الإعلام والثقافة الشعبية موضع الدراسة فالثقافة الشعبية بكل ما تحمله من خصائص :التداولية، الشفوية، مجهولية المؤلف، التوارثية، اللغة العامية،...، شكلت وثيقة فنية تقبلها الشعب وصادق على محتواها؛ تحمل معان عميقة نابعة من تجارب معاشة في شكل رسائل ايديولوجية وجب الكشف عن مضمراتها.

من الدراسات الثقافية التي كان محور اشتغالها هو الثفافة الشعبية وإعادة الاعتبار لكل الأشكال المهملة والمهمشة مع الكتاب اليساريين الذين اثبتوا عدم كفاية المؤسسة الأدبية إلى ميلاد النقد الثقافي الذي يتعامل مع الخطابات الأدبية والثقافية للكشف عن أنساقها المضمرة مع إبعاد الانتقائية المتعالية؛ التي من شأنها أن تفصل بين الخطاب النخبوي والخطاب الشعبوي من أجل كسر جميع العقد المركزية التي كانت منتشرة سابقا فمن رحم تلك الدراسات الثقافية التي كانت بمثابة المراحل الأولى لبرمجة وتأطير النقد الثقافي ولد ذلك الأخير الذي يشتغل على مقولة الأنساق المضمرة فهو ليس منهجا أو نظرية إنما هو مقاربة وممارسة تقوم على إنتاج النصوص والكشف عن أنساقها ودلالاتها المضمرة فهو يحاول تسليط الرؤية على النص في ضوء الثقافة التي أنتجته، مما يسمح للقارئ أن يتفاعل معه؛ ويعيد بناءه بعد تفكيكه جزء جزء، وفكرة فكرة، ليصل إلى فك شفراته، واستخراج

أنساقه المضمرة؛ التي يصعب رؤيتها بواسطة القراءة السطحية؛ لأنها تتخفى وراء سحر الظاهر الجمالي.

تغدو "العلاقة بين النقدين الأدبي و الثقافي علاقة تكامل فالنقد الأدبي ضرورة للإبانة عن جمالية النص، وعن شروط الحساسية الجمالية، وكذلك فإن النقد الثقافي ضروري من اجل الإبانة عن الأنساق الدفينة في النص، وعن الخبايا النفسية والاجتماعية والسياسية للنص" .[6]

في ضوء العلاقة التكاملية بين أقطاب وعناصر العملية الإبداعية تغدو المناهج ما بعد البنيوية ليست إلغاء للمناهج البنيوية؛ وإنما هي استمرار لها فالانطلاقة من النقد الأدبي للوصول إلى ما يسمى بالنقد الثقافي، الذي يشتغل على مقولة الأنساق المضمرة، ضمن مجال الفكر والفلسفة والآداب، ووسائل الاتصال والإعلام وغيرها من الظواهر التي قد تدخل في إطار الفنون باختلافها والثقافة مثل الثقافات الشعبية والجماهيرية وكذا المهشمة المقصية من المنظومة المؤسساتية .

2. مهن.. ومهمات تراثية تصارع للبقاء.

يزخم التراث الشعبي بالعديد من المهن والحرف التي ابتكرها الإنسان لحاجته إليها وتسهيل عيشه، حيث نجد مهن على مدار العام وأخرى موسمية، ومن هذه الأخيرة يصدح صوت لإيقاظ النيام على وقع نقر طبلة معلقة ومشدودة على الكتفين، إنه "بوطبيلة"، العمل الإنساني بالموسم الرمضاني.

فمن هو بوطبيلة؟ وإلى أي مدى وصل إليه في هذا العصر في ظل التطور التكنولوجي؟ وهل هناك نماذج بالجزائر صامدة إلى اليوم؟

أبو طبيلة هو "الفنان الرمضاني الأول وصاحب الجاذبية والتأثير الوجداني"[7]. إنه الأيقونة الرمضانية التي اختفت عن كثير من المناطق، لطالما "كان المسحّر، أو المسحراتي، معلماً من معالم رمضان الرئيسية، وكان شخصية أثيرة يُنتظر ظهورها مع انتظار الشهر الفضيل وتحنناً لقدومه"[8].

عن اشتقاق الاسم فإن "تسمية «المسحّر» مشتقة من «السحور» أي تناول وجبة في وقت «السّحر» فإنه اكتسب أيضاً بعض معاني الجذر الآخر: «سحر» بما اكتسبه من جاذبية وتأثير وجداني،وخاصة بالنسبة للأطفال والصّبية. والسحور بفتح السين: اسم لما يؤكل من طعام وقت

السحور، والسحور بضم السين: تناول الصائم طعام السحور، وسمي كذلك إشتقاقة من السحر،، ومن يتولى هذه مهمة التسحير يسمى المسحراتي"[9]. هو المنبه البشري لدخول وقت السحور، في ظل غياب الهاتف والمنبه.العتيق " الرجل الذي يقوم بعملية التسحير – أي دعوة الناس إلى ترك النوم وتناول الطعام قبل حلول أذان الفجر". [10]

كل الدول العربية عموما. تعتمد التسمية المشتقة من لفظة السحور وأغلبها: "المسحراتي"، أو بإضافة أبو(أبو طبيلة،والطبّال)، نسبة إلى الطبل الذي يضرب عليه بالعصا المرافق لصوته الشجي من أجل إيقاظ النيام والإعلان عن بداية وقت السحور. فمهما تعددت التسميات لمن يوقظ للسحور بآلته ويجوب الشوارع،(المسحراتي، المسحر، المسحرجي، الطبال، أبو طبيلة، بوطبيلة، بابا مرزوق، الداندون، البراح، أبو الدمام، الطار... ومهما تعددت أسماء الآلة الطبل يبقى تصريح مباشر بدخول شهر رمضان المبارك.

لقد عرفت مهمة التسحير منذ عهد النبي علي الصلاة والسلام فقد "كان الصحابي الجليل بلال بن رباح ــرضي الله عنهــ أول من قام بمهمّة التسحير في عهد الرسول ــصلى الله عليه وسلمــ فكان يجوب الشوارع والطرقات، لإيقاظ الناس للسحور بصوته وقد قال عنه الرسول الكريم ــصلى الله عليه وسلمــ : إن بلال ينادي بليل، فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم"[11].

مهنة رمضان العريقة، وفرصة للاسترزاق في الشهر الفضيل، حيث يؤثر غيره على نفسه ويحرم من نومه، يحمل بين كتفيه طبلته وبين أصابعه أعوادا يقرع بها تارة الطبل وأخرى أبواب الأحباب .

مجلة تمثلات/ جامعة مولود معمري تيزي وزو المجلد 08 العدد01 السنة 2024
ص150. – ص 168 ISSN:2437-0622 EISSN 2710-8678

تتفق العديد من مناطق العالم العربي على اختلافها أن الاستيقاظ للسحور يكون على وقع صوت آلات كالطبل والمزمار؛ وفي الجزائر كان يستيقظ الناس على قرع الطبول، إذ كان فقيه القرية وإمامها يعمد إلى قرع الطبلة من فوق قمة جبل شامخ، أو من شرفة عالية، بسبب موقع القرية ونظام تضاريسها الجغرافية كعمل تطوعي يبدأ عادة من الواحدة حتى وقت آذان الفجر لا ينبغي منه سوى الأجر والثواب.

فقد كان التسحير من طريق الأذان ثلاث مرات: مرة لإيقاظ الناس، وأخرى للتنبيه، والثالثة إيذاناً بالإمساك.

3. بوطبيلة بين أحضان التراث

ظهرت شخصية المسحراتي التقليدية وعملت المجتمعات الشعبية على تحول التسحير من عمل عارض ومؤقت إلى مهنة وتخصص، بأن جعلته عملاً مأجورًا يتشارك أبناء المجتمع المحلي في دفع مكافأته، عيناً أو نقدًا. وقصد المجتمع الشعبي بذلك أن يتيح للمسحر التفرغ والحافز لتجويد عمله وتنميته، وبذا انتقل عمل المسحر من مجرد تنبيه الناس إلى حلول موعد تناول وجبة السحور، وأصبح عمله بالإضافة إلى التنبيه والإعلام عن الوقت – أداء فنون من القول والموسيقى والحركة، تكون طرق الإيقاظ مبتكرة في مجال الموسيقى الفولكلورية، مما جعل الوظيفة الجمالية في أدائه تبرز على

حساب الوظيفة الإعلامية. وكان هذا التحول في كيفية عمل المسحر مثارًا لصعود مكانته وتوطد دوره في الحياة الشعبية؛ ولكنه أصبح أيضاً – سبباً في هبوط هذه المكانة ووشوكها على التلاشي في أيامنا هذه، ما لم يتمكن المسحر من إحداث تحول كبير آخر في عمله، يتوافق مع تحول أسلوب المعيشة والتغيرات الاجتماعية المعاصرة ودخول مستحدثات ووسائط ذات هيمنة جماهيرية ونفاذ أشد[12] .

يعتبر **"بوطبيلة"** (صاحب الطبلة) الذي يتكفل بإيقاظ الناس لتناول وجبة السحور واحدة من العادات الرمضانية العريقة الراسخة في التراث الشعبي التي تتوارثها الأجيال فهو عادة تأبى الاندثار، وثلاثية تراثية رمزية لا غنى لواحدة عن أخرى: المسحّر، الطبل، الترديد، الأداة الجاهزة لتعبير عن مكنونات الهوية المستعملة والتعريف بالكينونة والماهية وإبراز وجود وولاء وتميز كل أمة عن الأخرى بكل بساطة وطلاقة وعفوية مطلقة تعجز عن تأديتها الثقافة الرسمية، وبها تكون الثقافة الشعبة الوعاء الحامل للتراث الشعبي وهذا الأخير هو نقطة تميز الهوية وأساس ثباتها وخصوصيتها وتفردها تلك الهوية التي تجمع بين المبادئ واللغة والعقيدة والدين وتاريخ ناهيك عن الحضارة والثقافة.

كنشاط يومي قبل نحو ساعتين من الإمساك الذي يمثل موعد التوقف نهائيا عن تناول الطعام والشراب قبل الصوم من خلال الضرب على الطبل بغية إشعار السكان بتناول وجبة السحور الذي ورد في السنة النبوية المطهرة.... بإطلاق صوته الذي ينادي به لإيقاظ النائمين.بإيقاع متناغم رخيم وبخطوات منتظمة مع إيقاع طبلته الذي يقطع سكون الليل، مرددا كلمات وعبارات تساءل الهوامش فنا كلاميا عن طريق اللهجة العامية البسيطة يعتمدها لإيصال صوته؛ الصادرة من لاوعيه وهو ما يؤكد فكرة "نيتشه" بأن الفن والإبداع يصدر من الأعماق لا العقل فهذا الأخير يفرض قيود على المجتمع وهو من يفسد العالم من خلال جعله يفقد حيويته التي تنطلق من اللاوعي الذي يشكل فجوات العقل التي يجهلها الناس؛ هذه الفجوات التي تظهر بشكل مفاجئ عند الحاجة لحل مشكلة ما وهو ما ينطبق مع حالة المسحراتي الذي يلقي أقواله بشكل عفوي غير مدرك دون تحضير، ولا يفوتنا أن ننوه إلى أن هذا المتطوع لإيقاض الناس له حياته الخاصة وتوتراته التي يعيشها بوصفه عضوا في المجتمع ولدفاع عن نفسه وصحته النفسية ويوازن بين حيثيات حياته يستخدم أساليب تقلل التوتر الذي يشعر به؛ قد تكون حيل خداعية أو هروبية أو حتى حيل استبدالية تظهر بشكل جلي مع متطوعنا عبر تقنية التسامي المشتغلة على إعادة توجيه الضغط والمشاكل لطاقة إبداعية مقبولة اجتماعيا فينتج ويبدع في مهنته الرمضانية عبر خلق تواتر أحرفي تلقائي مميز يتناغم مع ضربات الطبل، أبرزها قوله: ‘‘سبحان الله والحمد لله..السحور السحور’’ أو "نوضي يالالة ماتبقيش بلاش". ويردد: "ياصايم وحد المطل" ، فيستيقظون ممتنين لصاحب الصوت الشجي الذي يوقظهم كل ليلة.

جعل من وقت السحور بأحياء مجمعًا للصغار قبل الكبار يتبعونه في أجواء بهيجة امتزجت بالفرحة واكتشاف موروث راسخ، وبعد أداء صلاة عيد الفطر المبارك يجوب "بوطبيلة" المدينة للمرة الأخيرة قبل حلول رمضان في السنة المقبلة مرتديا زيه التقليدي وحاملا لطبلته المعتادة من أجل اقتسام فرحة العيد مع السكان الذين يتبرعون له بقليل من المال ومواد غذائية مختلفة. وبها يعتبر المسحراتي إرثا حضاريا تتوارثه الأجيال منذ تاريخ ضارب في شعاب الزمن.

4. التقدم التكنولوجي كأداة للقهر:

هذا الموروث الشعبي لا يكتمل بدونه شهر رمضان، ما تزال تحافظ عليه منها عديد المناطق وخاصة بجنوبنا الكبير "**ورقلة**" و"**وادي سوف**" و"**أدرار**"... بعد أن سجل حضورا دائما قبل سنوات طويلة في رمضان يكاد في وقتنا الراهن يختفي ووسط شبح الاندثار والزوال النهائي.تعدّ محاولات إعادة إحياء موروث ''المسحراتي'' محتشمة وقليلة جدا في المجتمع الجزائري.[13]

السبب الرئيس في ذلك راجع إلى تطور المجتمع بعد الاستقلال 1962 " ليس هناك ما يضمن للإنسان أن يتجنب ابتداع وسائل للإنتاج أو الاستهلاك تتجاوز قدرته البيووجية أو النفسية علىالتحمل، فإذا به يذهب في تطوير التكنولوجيا إلى حدود قد تتعارض تعارضا جسيما مع الهدف الذي يبتغيه ابتداء"[14]

يهدف الانسان من خلال خلق آلات تسهيل طرق عيشه وقتل أوقات فراغه مع تخفيف أعباء الحياة في نفس الوقت وزيادة منسوب الاستمتاع بها ولكن عامل التكنولوجيا الحديثة قد أثر من ناحية أخرى سلبا على التراث الشفهي والعادات الشعبية في الجزائر بما فيها ''المسحراتي'' الذي باتت تنافسه الأجهزة الإلكترونية على غرار ''الهاتف'' بمختلف أنواعه و''المنبهات''و''التلفزيون'' و''الأنترنت''..

وغيرها. حتى التهنئة بقدوم رمضان يخرج فيها الطبل أو بوطبلة لليوم الأول للسحور الأول يهنئ الجميع على أنغام طبلته وألحان ذكره لكن اليوم أصبحت التهاني مجرد رسائل جاهزة بالجوالات ، " إن المهمة الحقيقية للإعلام بحسب الأمر الواقع هي إعادة تشكيل الواقع، وإعادة تغليفه، ثم تقديمه للناس في صورته الجديدة...وهذه الفرضية تنطبق على أغلب وسائل الإعلام".[15]

من هذا المطلق أفسدت وسائل الإعلام الجماهيرية عقول الجماهير واستدرجتهم إلى ثقافة الاستهلاك والمتع السطحية وكسرت توازنها من خلال جعل ردود أفعالهم آلية كونها اهتمت برسم وعي زائف لهم؛ يتجاوبون مع رنات المنبه وسلطة التكنولوجيا التي تعتبر سلاح فتاك في يد المسيطرين على المؤسسات الرأسمالية البرجوازية أصحاب الأملاك، من يمتلكون الإنتاج الذي يلم بالقوى المادية للمجتمع وبها يسيطر على قواه الفكرية والعقلية دون وعي منه يؤمن بعدم قدرته على التحدي، ففقدوا الاهتمام بهوية طبقتهم وموروثهم الذي يعبر عن جذورهم الأصيلة.

5. الزمن الميكانيكي مقابل الزمن العضوي

ما وصلت له الحداثة وما بعد الحداثة وكذا تأثيرات العولمة التي جعلت من العالم قرية صغيرة تعيش على كل مظاهر التطور بأنواعه الاجتماعي الإعلامي والاقتصادي وأهمه التكنولوجي الذي صنع مدينة اليوم؛ مدينة عملاقة الجدران تسربت لها بعض من المكتسبات التي غيرت معالمها: مؤسسات، شركات، أسواق، مصانع، "كل البنايات أو العمارات الحداثية خلال هذه الفترة تفتقر الشعور

الوجداني للشخص وكذا كل أشكال الراحة فالمعمار (...) أصبح متعاليا عن إحساس ومشاكل المجتمع"[16] أكثر ما يلوح في شوارعها هي حجارة ضخمة دهست الإنسانية وأجهزت على النفسية والقيم والروح النبيلة فأكثر ما يتعامل معه الإنسان هو الألة التي يسابق الزمن بها " يحس أن لا أحد يسمع أنينه و آهاته تتعمق تجربته الاغترابية، وتزداد حدة إحساسه بالوحدة مما يزيد من حدة صراعه مع الحياة و الآخر ومع نفسه، ومن ثم تزداد انفعالاته"[17]

ثم إن: " الشرط الأول لخلق عصر الآلة هو اختراع زمن ميكانيكي يحل محل الزمن العضوي أو الطبيعي، وقد تحقق هذا باختراع الساعة، لقد كان اكتشاف الساعة يفوق معرفة الوقت وتقسيمه، فلم يعد الأمر قياسا بالرؤية وخضوعا للعوامل الطبيعية أو تغيير الليل والنهار، غروب الشمس وإنما أصبح للقياس الرياضي والترقيمي"[18]

تطورت الحياة الاقتصادية ضمن ما يعرف بالحداثة المادية وبالتالي أثرت على مستقبل الحر التقليدية بظهور مهن جديدة وليدة الفضاء الصناعي وأهم خطر هدد مستقبل هذه الحرف هو ظهور شبح الآلة التي حلت محل الإنسان فتراجعت اليد العاملة، ومنه انفجرت فكرة الزمن الميكانيكي مقابل الزمن العضوي.

بقيت أزقة المدن القديمة وحدها تستيقظ على إيقاع موكب السحور الذي يضم أكثر من طبل ومجموعة من الرايات يحملها الصبية المرافقون للمسحراتية. بالمقابل تجد أحياء سكان معظم المدن يستيقظون على المنبه في الساعة الإلكترونية أو في الهاتف والجوَّال، حتى أن هؤاء السكان يبقون مستيقظون حتى وقت السحور عاكفين على اللعب بمختلف وسائل التواصل الاجتماعية لساعات طويل دون كلل أو ملل.

أو أن طبيعة الحياة المتطورة وبقاء المحلات قد الفتح حتى ساعات أوائل اليوم الموالي بين من هم في حالة سمر وتجوال ومن هم في حالة بحث عن لقمة التعيش داخل مطابخ هذه المحلات والمطاعم التي تزود الراجلين بأشهى المأكولات.

أصبح ضائعا بين مدينة تمزق كيانه وأصليته وبنى حاجز العزلة والوحدة فغدى في ضياع وجودي ووجداني وبداية اندثار كل ما يعيده إلى زمنه الجميل إلى الريف الذي يشع روحه بصوت المسحراتي الذي يصل على بعد أمتار من مكانه لطبيعة المكان المشرحة والمفتوحة الحاملة لذكريات الصبا والفضائل التي تغنيه عن الرذائل، فيحمل بها عادات وتقاليد ريفية شرقية عربية يحاول الغربي القضاء عليها بشتى الوسائل ففي نظره كل ما هو شرقي هو طفولي وبدائي وجب استبداله بما هو غربي متقدم وبها يقع المرء بين ثنائية الشرق والغرب التي تولد نسق المدينة والريف ومنه تظهر ثنائية الحداثة والتراث. فلطالما كانت العولمة خطط لسلب القضايا التراثية التي تعلقت بها الشعوب وسلب خصوصياتها الثقافية وتذويب الهوية لتصبح هوية الأنا تابعة للآخر وبها يصبح واقعا ملموسا التخلي عن مقومات الثقافة الموروثة والقيم الثقافية الساكنة حقيقة أيضا أمام كل وافد ثقافي.

6. النظرة القاصرة للحداثة

من هذا المنطلق يمكن القول أن أولى أشكال التخلي عن مهنة المسحراتي هو الصدمة الحضارية أو النظرة القاصرة للحداثة بفهم شقها المادي فقط وحرق مراحل استعابها،ويقدم "**مُحَمَّد أركون**" التجربة الكمالية نموذجا للفهم الخاطئ للحداثة فقد كانت الدولة العثمانية حضارة تراثية بامتياز خاصة من الجانب الديني كاحتفالات رمضان؛ التي يكون العرب قد ورثها من عن الأتراك أثناء تواجدهم في المشرق والمغرب العربي، فيقيم أركون التجربة الكمالية بالاندفاع اللاواعي ل"**كمال أتاتورك**" الذي صدم بالحضارة الأوروبية بمظاهر رقيها وتطورها بعد دراستها في أوروبا واحتكاكه بحضارتها وولعه بثقافتها قابله ازدراء للمجتمع الإسلامي الخاضع لمجموعة من المحرمات الدينية والشعوذية والسحرية، لذلك رد فعله كان أشبه بالاندفاع الناجم عن النقمة والغضب منه إلى تفكير الناس والنظر البعيد فتركيا قفزت على المشكلة بدل مواجهتها "**لا يستطيع التراث منطقيا أن يحتوي أو يستوعب معطيات العصر والفكر العصري ومشاكله، لكن العصر والفكر العصري هو الذي يستطيع أن يحتوي التراث ويستوعبه لأنه يتجاوزه**"[19] والتجاوز لا يعني النفي أو الإفناء إنما يعنى

السبق و الإضافة وإدخال قيم جديدة تتجاوز القيم الماضية لا ينفي أيضا إمكانية تعايشها بل هو إغناء للثقافة.

خاتمة

نصل إلى توقيع صفحة النهاية من خلال مجموعة من النتائج أهمها:

–أن الثقافة الشعبية مدونة تفرض نفسها بالتعبير عن تمفصلات حياة الجماعة.

–انطلقت أغلب الناهج النقدية مع المناهج السياقية من مثل: التاريخية، النفسية، الاجتماعية...، التي يراعى فيها السياق الخارجي للنص.

–تغير منحى النقد فيما بعد من السياق إلى النسق مع البنيوية بتقصي النص بمعزل عن مؤلفه عبر معجمه وتراكيبة البلاغية واللغوية.

–انتقل التركيز من المؤلف إلى القارئ الذي يفك شفرات النص الأدبي مع تيار ما بعد البنيوية.

–من موقع نظرية القراءة مباشرة إلى الدراسات الثقافية والنقد الثقافي انتقلت عملية النقد، الذي يروم إلى الاشتغال على فكفكة النص والإعلان عن قبحياته المتوارية خلف الجماليات.

–يزخم التراث الشعبي بالعديد من المهن التي ابتكرها الإنسان لتسهيل عيشته من بينها مهنة بوطبيلة الشخص الذي يوقض النيام في شهر رمضان من أجل السحور.

–هذا الموروث يكاد يختفي من الأوساط الشعبية بسبب تطور المجتمع وانتشار الأجهزة الالكترونية: الهاتف المنبهات التلفزيون...وكذا بسبب تغير الزمن من العضوي الذي يولي أهمية للإنسان إلى الميكانيكي الذي يركز الآلة التي جعلت الانسان ضائع في مدينة تمزق كيانه.

– استنادا إلى هذا أصبحت مهمة بوطبيلة في طريق زوال أفول نجمه، إن لم تتعمده رحمة الخلف وإحيائه وتطويره بما يتناسب والعصر دون المساس بالأصل. كأن يستمر المسحراتي في أداء مهمته حيثما وجد, محاولا أن يستحدث هاته المهمة فيلجئ لركوب سيارة مكشوفة تعينه في أن يجوب أكبر قدر ممكن من شوارع المدينة الحديثة, وهو يقرع على طبلته ويردِّد أناشيده، هذا بدل أن يترجل

ويقتصر على بعضها، فالمسحراتي تأريخ حي متجدد. كما يجدر الإشارة بأنه هناك رغبة في الحفاظ على هذه العادات فتجمل قدر الإمكان لتواكب العصر وتكن أكثر قلولا واحتضانا.

الهوامش:

[1] *يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور، الجزائر، ط3، 2015، ص:53.*

[2] المرجع نفسه، ص :168.

[3] المرجع نفسه، ص:175.

[4] *زيودي نساردار ويورين فان لون، الدراسات الثقافية، ت: وفاء عبد القادر، م:إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، القاهرة (مصر)، ط1، 2003م، ص: 12.*

[5] آثر أيزابرجر، النقد الثقافي تمهيد مبدئي الرئيسية، ت: وفاء إبراهيم و رمضان بسطاوسي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة (مصر)، ط1، 2003م، ص:31.

[6] عبير حميدة و ليلى أحمادي، المضمرات الثقافية في "لزوميات" أبي العلاء المعري، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر، جامعة ،الشهيد حمة لخضر، الوادي (الجزائر)، 2017-2018م، ص:40.

[7] *صلاح عبد الستار محمد الشهاوي،المسحراتي في التراث العربي والإسلامي مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دارالعلوم ديوبند ،مصر – طنطا – دمشيت، .العدد: 9-10 ، السنة : 36، رمضان – شوال 1433هـ = يوليو – سبتمبر 2012م.www.deoband-darululoom.com/arabic/*

[8] المرجع نفسه.

[9] المرجع نفسه.

[10] المرجع نفسه.

[11] *أشرف أسعد، المسحراتي.. تراث ونغم، مجلة الفيصل، مجلة ثقافية شهرية، الرياض، 1436هـ، مارس، أفريل 2015م، ص91.*

[12] ينظر: صلاح عبد الستار محمد الشهاوي،المسحراتي في التراث العربي والإسلامي .

[13] *ينظر: حسام الدين إسلام ، المسحراتي في الجزائر... مهنة رمضانية توشك على الإندثار الجزائر، 22 – يونيو – 2017.*

[14] جلال أمين، العولمة، الشروق، القاهرة (مصر)، ط4، 2009م،ص:51.

[15] أحمد فهمي، هندسة الجماهير.كيف تغير وسائل الإعلام الأفكار والتصرفات؟، مركز البيان للبحوث والدراسات، الرياض،ط1، 1432هـ، ص: 12.

[16] مُحَمَّد بوجنال، الفلسفة السياسة للحداثة وما بعد الحداثة. شرط فهم صراعات الألفية الثالثة، التنوير، بيروت (لبنان)، (د.ط)، 2010م، ص:133.

[17] مُحَمَّد المهادي بوطارن، الاغتراب في الشعر العربي الرومنسي، الكتاب الحديث، (د.ط)،(د.ت)، ص:51.

[18] هاني جابر، التكنولوجيا وثقافتها المعاصرة ومستقبل الحرف التقليدية، مجلة الفنون الشعبية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ع:24، 1988م.

[19] برهان غليون، اغتيال العقل محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، المركز الثقافي العربي، بيروت (لبنان)، ط4، 2006،ص:262.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أشرف أسعد، المسحراتي.. تراث ونغم، مجلة الفيصل، مجلة ثقافية شهرية، الرياض، 1436هـ، مارس، أفريل 2015م.
2. أحمد فهمي، هندسة الجماهير.كيف تغير وسائل الإعلام الأفكار والتصرفات؟، مركز البيان للبحوث والدراسات، الرياض،ط1، 1432هـ
3. آثر أيزابرجر، النقد الثقافي تمهيد مبدئي الرئيسية، ت: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاوسي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة (مصر)، ط1، 2003م.
4. برهان غليون، اغتيال العقل محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، المركز الثقافي العربي، بيروت (لبنان)، ط4، 2006.
5. حسام الدين إسلام، المسحراتي في الجزائر... مهنة رمضانية توشك على الاندثار الجزائر، 22 – يونيو – 2017م.
6. جلال أمين، العولمة، الشروق، القاهرة (مصر)، ط4، 2009م
7. زيودي نساردار و بورين فان لون، الدراسات الثقافية، ت: وفاء عبد القادر، م:إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، القاهرة (مصر)، ط1، 2003م.

8. صلاح عبد الستار مُحَمَّد الشهاوي،المسحراتي في التراث العربي والإسلامي مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند ،مصر – طنطا – دمشيت، .العدد: 9-10، السنة : 36، رمضان - شوال 1433هـ = يوليو - سبتمبر 2012م.

9. عبير حميدة و ليلى أحمادي، المضمرات الثقافية في "لزوميات" أبي العلاء المعري، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر، جامعة،الشهيد حمة لخضر، الوادي (الجزائر)، 2017-2018م.

10. مُحَمَّد المهادي بوطارن، الاغتراب في الشعر العربي الرومنسي، الكتاب الحديث، (د.ط)،(د.ت).

11. مُحَمَّد بوجنال، الفلسفة السياسة للحداثة وما بعد الحداثة. شرط فهم صراعات الألفية الثالثة، التنوير، بيروت (لبنان)، (د.ط)، 2010م

12. هاني جابر، التكنولوجيا وثقافتها المعاصرة ومستقبل الحرف التقليدية، مجلة الفنون الشعبية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ع:24، 1988

13. يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور، الجزائر، ط3، 2015م.